9

الجزء التاسع

جزيرة روبن

بداية الأمل

-٧١-

كان التحسن في المعتقل لا يأخذ شكلا اضطراديا بل كان يتوقف وينتكس. ولكن الأحوال تحسنت بالفعل فقد كسبنا عدة معارك صغيرة أدت إلى تغيير الجو في الجزيرة. وبعد رحيل ڤان رينسبرج أصبحت حياتنا محتملة.

وكنا قد أعطينا سراويل طويلة في خلال السنوات الأولى. في ١٩٦٩ تسلم كلٌ الملابس الخاصة به وسمح لنا أن نغسلها بأنفسنا وسمح لنا بالخروج للفناء أثناء نهاية الأسبوع، كما سمح للمساجين الأفارقة بالخبز أحيانا مع وجبة الإفطار. وصرفت لنا ألعاب مختلفة وأوراق لعب ولم يعد أحد يقاطع أحاديثنا في المحجر ونجحنا في تحييد السجانين السيئين وصادقنا المعتدلين كما أصبحنا قادرين على عقد الاجتماعات.

كما كانت مناسبة الكريسماس هي اليوم الوحيد الذي تبدي فيه السلطات الإرادة الحسنة نحو الرجال فلم نكن نذهب للمحاجر وكان يسمح لنا بشراء كميات قليلة من الحلوى ويصرف لنا قدح إضافي من

القهوة مع العشاء.وكان يسمح لنا فى أيام الكريسماس بإقامة حفلات غنائية كنا نقدم فيها مسرحيات ونغنى فيها التراتيل الدينية والأغانى التراثية والشعبية التى كنا نضمنها بعض أغانى الاحتجاج الأمر الذى كان تتجاهله السلطات أو ربما أنهم كانوا لا يفهمون الكلمات كما كنا نقيم مسابقات فى الشطرنج والطاولة وألعاب الورق.

-٧٢-

كان بعض السجانين يبدأون معنا الأحاديث. ولم أكن أنا آخذ المبادرة ولكن إن حادثونى أجبتهم. وكانوا يسألوننى عما أريد وقد أوتيت ما يكفينى فكنت أبدأ فى شرح سياسة المؤتمر لهم. وفى عام ١٩٦٩ وصل سجان شاب بدا وكأنه مهتم بأن يتعرف علىّ وكنت قد سمعت شائعة مؤداها أن أشخاصا فى الخارج كانوا يرتبون أمر هروبى وأنهم سوف يسربون أحد الحراس إلى الجزيرة لمساعدتى. وأسر إلى ذلك الحارس أنه الشخص المعنى.

وبدأ يخبرنى بالخطة، وكانت تتلخص فى أنه سوف يقوم بتخدير الحراس المناوبين عند الفنارة؛ لكى يرسو قارب عند الشاطئ؛ وأنه

سيمدنى بمفتاح أستعمله للخروج من المبنى ولقاء القارب وبعد ذلك أرتدى زى الغطس وأنا فى القارب وأسبح حتى ميناء كيب تاون حيث يصحبنى أشخاص إلى مطار محلى وأهرب خارج البلاد.

وتشاورت مع وولتر وقررنا أن ذلك الشخص غير أهل للثقة ولم أوضح له أننى لن أقوم بالعملية لكنى لم أفعل أى شئ لإنجاز الخطة ولابد أنه فهم ما اعتقدته لأنه سريعا ما انتقل من الجزيرة وقد تبين لى فيما بعد أنه عضو فى مخابرات جنوب إفريقيا وكانت الخطة أن أنجح فى الهرب من الجزيرة لكى يتم قتلى بواسطة رجال الأمن وأنا أحاول الهرب من المطار.

وفى نهاية عام ١٩٧٠ قررت السلطات استبدال الجو المتراخى فى الجزيرة وعين الكولونيل بيت بادنهورست مأمورا للجزيرة وكانت له سمعة ضابط وحشى سلطوى فى جميع خدمات السجون. وكان كلما تم تعيين مأمور جديد أطلب مقابلته لشرح موقفنا وأيضا لتقييم شخصه ولما تقدمت بطلبى هذه المرة كان الجواب هو الرفض.

وألغى المأمور الجديد عددا من القواعد بشأن الدراسة ووقت الفراغ وكان من الواضح أنه يعتزم إلغاء المزايا التى اكتسبناها على مدى السنوات. وتم نقل السجانين القدامى من الجزيرة واستبدالهم بأشخاص من انتقائه يصغرون الآخرين سنا ويفوقونهم فظاظة. وكانت وظيفتهم تنحصر فى مضايقتنا وهدم معنوياتنا. وخلال أيام من تعيينه تم تفتيش الزنزانات وصودرت الكتب والصحف وحجبت الوجبات بدون

إنذار وكان يجرى دفع الأشخاص بخشونة فى الطريق إلى المحجر.

وكان بادنهورست يجيب بالنفى على كل شئ وإذا طلب أحد رؤية محاميه كانت النتيجة الحبس الانفرادى، وألغيت الزيارات وتدهور الطعام وزادت الرقابة.

وبعد أسبوع من تعيينه وبينما كنا نعمل في المحجر وصل بسيارته وخرج منها ووقف يرقبنا عن بعد وتوقفنا للنظر إلى مأمورنا الجديد فناداني ووجه إليّ عبارة بذيئة لم أتقبلها فتقدمت نحوه. لكن قبل أن أقترب منه ركب سيارته ومضى. ثم أرسل رسالة بالراديو إلى موظفيه حيث حضروا بالشاحنة ونقلونا إلى قسمنا وحينما وصلنا إلى الفناء أمرنا بالوقوف وعندئذ ظهر بادنهورست يتمشى أمامنا وأخذ يوجه إلينا العبارات البذيئة ثم قال لنا إنه شعر بالاشمئزاز لما رآه من تكاسلنا فى المحجر وعلى ذلك قرر أن يدنى تصنيفاتنا درجة وكان معظمنا قد ارتفع إلى تصنيف جـ أو أعلى وكان لا يسمح بالدراسة للمساجين من تصنيف جـ. وكانت السلطات قد ندمت على السماح لنا بالدراسة وبدا بادنهورست مصمما على إصلاح ذلك الخطأ.

-٧٣-

فى مايو ٧١ أحضر عدد من رجال منظمة سوابو إلى الحبس الانفرادى وكان على رأسهم أنديمبا تويتو مؤسس سوابو. وعلمنا أنهم بدأوا إضرابا عن الطعام فقررنا أن نلحق بهم مما سبب غضب بادنهورست والسلطات الذين رأوا فى ذلك عصيانا غير مقبول.

وفي وقت متأخر من ٢٨ مايو استيقظنا على صوت صيحات وطرقات عنيفة على أبواب الزنزانات وأخذ السجانون يأمروننا بالاستيقاظ ثم بخلع ملابسنا والاصطفاف على الحائط وكان الليل قارس البرودة ولمدة ساعة وبينما كنا نقف عارين مرتجفين أخذوا فى تفتيش زنزاناتنا واحدة واحدة. وبنهاية الساعة أصابت جوفان آلام حادة في صدره وانهار وأخاف ذلك الحراس وأمرونا بالعودة إلى الزنزانات.

وكان التفتيش عذرا ليمارس به رئيس السجانين نزعاته السادية. وفى اليوم التالى اكتشفنا أن السجانين قد قاموا بضرب بعض مسجونى القسم العام. وبعد ذلك تهجموا على تويفو الذى قام بدوره بالدفاع عن نفسه وأوقع السجان الذى هاجمه وتمت معاقبته بقسوة لذلك.

وقررنا ألا ندع الأمور تسوء كلية تحت إدارة بادنهورست وقمنا بتهريب رسائل إلي رجالنا فى الخارج للقيام باضطرابات لطرده وفى نفس الوقت قررنا تكوين لجنة لمقابلة بادنهورست واستغرقت المناقشات شهورا حتى اتخذ قرار التكوين وكنت أنا ووولتر نمثل المؤتمر وكان لكل من التنظيمات الأخرى ممثلون وأثناء المقابلة هددناه بالتوقف عن العمل والتباطؤ والإضراب إن لم يعدل أساليبه ويرد إلينا الامتيازات التي سحبها منا وقال إنه سيدرس الموضوع اعتبرنا ذلك انتصارا.

وبعد أسابيع قليلة عرفنا أن زيارة هامة قد اقترب موعدها إذ سمح لنا أن نحتمى من الأمطار حينما هطلت على المحجر.

وفى اليوم التالى علمنا أن ثلاثة قضاة سيقدمون إلى الجزيرة واخترت

متحدثا عن الباقين.

وفى تلك الأثناء علمت أن سجينا من القسم العام قد تم ضربه بعنف من قبل الحارس وكان القضاة الثلاثة من قسم الكيب تاون من المحكمة العليا وكان يرافقهم مدير السجون وبادنهورست وقابلتهم فى المكان الذى نعمل فيه.

وتكلمت فى حضرتهم عن الهجمات التى حدثت فى القسم العام وعن وقائع الضرب الآثمة ومحاولة تغطية الجريمة وحاول بادنهورست تكذيبى وتهديدى ولكن القضاة اعتقدوا فى صحة ما أقوله. ثم عددت شكاوانا من نظام التغذية والعمل والدراسة. وعقب الزيارة لاحظنا أن يدى بادنهورست كبلت وعقب ثلاثة أشهر تم نقله.

وقبل أيام من مغادرة بادنهورست كان مدير السجون فى زيارة للجزيرة واستدعانى إلى المكتب الرئيسى ليعرف شكاوانا وعددت مطالبنا وبعد انتهائى من كلمتى رد بادنهورست مباشرة قائلا إنه سيغادر الجزيرة وأضاف أنه يرجو لنا حظا موفقا. وأصابتنى الدهشة. فقد قال تلك الكلمات كإنسان وأظهر جانبا من نفسه لم نره من قبل فشكرته.

-٧٤-

وأعلن أن الكولونيل ويليمز سيخلف بادنهورست وطلبت مقابلته ووجدت أنه وإن لم يكن تقدميا فقد كان مجاملا ومعقولا.

ورحل السجانون الذين كان بادنهورست قد أحضرهم معه واستعدنا تصرفاتنا المعتادة فى المحجر ورغم أن ويليمز كان معقولا فقد صُعِق عندما رأى أننا نقضى وقتا في الحديث أكثر منه فى العمل. فاستدعانى إلى مكتبه وطلب منى مساعدته فى فرض النظام فأخبرته أن لطلبه شرعيته ولكن قبل أن أستجيب له فعلى أن أجتمع بكل الرجال وكان مثل ذلك الاجتماع محظورا فطلب منى بعض الوقت لدراسة طلبى وبعد أيام سمح لى بالاجتماع. والتقينا جميعا بعد الظهيرة فى الفناء دون حراس وأخبرتهم بما قاله ويليمز واتفقنا أن نظهر على الأقل وكأننا نعمل لكن بالسرعة التى تناسبنا ولم نسمع شكوى مرة أخرى.

وفى الفترة الأولى من عمل ويليمز ما بين ١٩٧١-١٩٧٢ حضرت أعداد كبيرة من أسرى MK وكانوا قد شهدوا المعركة وكانت لديهم معلومات عن حالة الحركة فى المنفى. وكنت متشوقا أن سمع عن أوليفر وعن معسكرات التدريب وعن نجاح وفشل الـMK.

وكان هؤلاء الرجال نضاليين إلى أقصى درجة ولم يتقبلوا حياة السجن بسهولة وكان من قيادات هؤلاء الرجال چيمى إبريل وهو ضابط MK تلقى تدريبه تحت قيادة چو سلوفو وحارب العدو فى روديسيا.

وكانت الـMK تواصل تسريب رجالها إلى البلاد بوثائق مزورة وكان چيمى أحد هؤلاء، وقد ألقى القبض عليه.

وروى جيمي لنا الكثير من أنباء الحرب وانتحيت به جانبا وسألته عن مشاكل الـMK وبما أنني مؤسسها وأول قائد عام لها فكان جيمي أكثر صراحة معي وروى لي قصصا عن عدم رضا في المعسكرات وعن سوء المعاملة من جانب الضباط وطلبت منه ألا يحادث أحدا في الموضوع وتمكنت من تهريب خطاب إلى أوليفر طالبا منه أن يجرى الإصلاحات في المعسكرات.

وكانت نضالية هؤلاء الرجال شديدة وعدم تقبلهم لقيود وحياة السجن تسبب لنا المتاعب.

-٧٥-

وذات صباح وبدلا من أن نسير إلى المحجر أمرنا أن نصعد مرة أخرى إلى الشاحنة وسارت بنا خمس عشرة دقيقة ورأينا المحيط أمامنا والشواطئ الصخرية وعلى بعد كانت هناك أبراج كيب تاون الزجاجية وقال لنا الضابط إن علينا أن نجمع طحالب بحرية وكانت طويلة ولزجة وكان بعضها يصل طوله إلى ثمانية أقدام ويزن ثلاثين رطلا. وبعد جمع الأعشاب انتظمنا في صفوف ثم حملناها في الشاحنة بعد جفافها وقيل لنا إنه سيتم تصديرها إلى اليابان لتستعمل كأسمدة وفي ذلك اليوم لم يعد العمل متعبا ولكننا في الأسابيع والأشهر التي تلت وجدناه مجهدا ولكن ذلك كان محتملا لما كان يوفره جمال المنظر من متعة.

-٧٦-

وفى أوساط المقاومة كانت تعرف جزيرة روبن بالجامعة ولم يكن ذلك فقط لأننا كنا نتعلم من الكتب أو لأن المسجونين درسوا هناك الإنجليزية والأفريكانية والفن والجغرافيا والرياضيات، أو لأن أشخاصا مثل بيلى نير وأحمد كاثرادا ومايك وينجاكى وإيدى دانيالز حصلوا على عدة درجات جامعية، ولكنها كانت تسمى الجامعة أيضا لأننا كنا نتعلم من أحدنا الآخر فقد كنا نحن هيئة تدريس أنفسنا ومنهجنا الدراسي وكنا نميز بين الدراسات الأكاديمية الرسمية وبين الدراسات السياسية غير الرسمية.

فحينما كان يصل الشباب إلى الجزيرة كنا نعلم أنهم لا يعرفون سوى القليل عن تاريخ المؤتمر وكان وولتر أعظم مؤرخ للمؤتمر يبدأ فى إخبارهم عن نشأة المنظمة الأولى، وتدريجيا تحول ذلك التاريخ غير الرسمى إلى منهج دراسى تم وضعه بواسطة القيادة العليا وكان يعرف بمنهج أو كان يستغرق عامين من المحاضرات، وكان المنهج يتضمن مقررا يقوم كاثرادا بتدريسه يسمى تاريخ النضال الهندى وأخر يسمى تاريخ نضال الملونين بينما قام ماك بتدريس تاريخ الماركسية.

وشمل المقرر الذى درسه وولتر تاريخ المؤتمر منذ عام ١٩١٢ إلى الوقت الحالى وكان بالنسبة لكثير من الشباب التعليم السياسى الوحيد الذى تلقوه.

وبدأنا نوعا من الدراسة بالمراسلة مع مسجوني القسم العام الذين علموا عن البرنامج التعليمي ورغبوا في الالتحاق به وكان القادة يسربون إليهم المحاضرات. وكان ذلك مفيدا لنا ولهم فهؤلاء الرجال لم يكونوا قد تلقوا سوى القليل من التعليم ولكنهم كانوا على دراية واسعة بمشاق الحياة وكانت اهتماماتهم عملية أكثر منها فلسفية وكانت أسئلتهم تجبرنا على التفكير الجدى فى آرائنا.

وقمت أنا بتدريس مقرر فى الاقتصاد السياسى حاولت فيه تتبع تطور الإنسان الاقتصادى، منذ المجتمعات الجماعية وحتى الإقطاع ثم الرأسمالية والاشتراكية، وكنت أحاول أن أجيب عن الأسئلة بدلا من أن ألقى المحاضرات، وكنت منحازا للاشتراكية التى كنت أجد فيها أكثر مراحل الحياة الاقتصادية التى طورها الإنسان تقدما.

كما استمر عملي القانوني.. فكنت أقضي الساعات العديدة كل أسبوع أعد استئنافات قانونية للسجناء من جميع الطوائف السياسية. وكان كثير من الرجال فى القسم العام قد حكم عليهم بالسجن لأنه لم تكن لديهم الفرصة للاستشارة القانونية وسعى إليّ كثير منهم لعمل استئنافات. وكان في ذلك إبقاء على حيوية مهاراتى القانونية من جهة ومن جهة أخرى فقد تم إلغاء بعض الأحكام أو تقليلها فى عدد قليل من القضايا وكانت تلك انتصارات مرضية.

-٧٧-

لم يتوقف اضطهاد السلطات لزوجتي، ففى عام ١٩٧٢ ركل رجال

الشرطة باب المنزل وحطموه وقذفوا قوالب الطوب من النافذة وأطلقوا النيران على البوابة، وفي عام ١٩٧٤ اتُهمت ويني بخرق أوامر الحظر التي كانت منعت بمقتضاها من استقبال أي زائرين سوى أطفالها وطبيبها. وكانت وقتها تعمل في مكتب محام وأحضر صديق البنتين إليها أثناء ساعة الغداء فاتهِمت بخرق الحظر وحكم عليها بالسجن ستة أشهر في سجن ولاية أورانج وكتبت إلى ويني قائلة إن تجربتها في السجن عملت على تدعيم التزامها بالمعركة وكانت السلطات تسمح لزيندزي وزيني بزيارتها كل يوم أحد.

وكانت قوانين السجن في جزيرة روبن لا تسمح للأطفال ما بين عامين وستة عشر عاما بالزيارة. وفي عام ١٩٧٥ كانت زيندزي قد أتمت الخامسة عشرة وقامت والدتها بتغيير وثائق ميلادها لتثبت أنها أتمت السادسة عشرة وقدمت لها على تصريح بالزيارة تمت الموافقة عليه.

ولم أكن قد رأيت زيندزي منذ أن كانت في الثالثة وكانت هي تعرفني من الصور أكثر من الذاكرة. وفي يوم زيارتها اعتنيت بمظهري أكثر من المعتاد. وعندما رأيتها سعدت أنها قد أصبحت امرأة جميلة تشبه والدتها إلى حد كبير. وبدت زيندزي مترددة في البداية فلم يكن من السهل عليها أن ترى والدها الذي لم تعرفه أبدا والذي بدا وأنه لا ينتمي إليها ولكن إلى الناس عامة. ولابد أنها كانت في أعماقها تكن الاستياء والغضب نحو والدها الذي ظل غائبا طوال مدة طفولتها ومراهقتها. وتبينت فورا أنها شابة نارية ثورية مثل والدتها.

وأثناء تلك الزيارة علمت من وينى بمأساة وفاة فيشر من مرض السرطان بعد الإفراج عنه من السجن بقليل. وقد تأثرت بعمق لوفاته. فرغم أن الحكومة لم تترك بصماتها على جثته فإن قسوة معاملتها التى لا هوادة فيها هى التى تسببت فى مرضه الأخير الذى أدى إلى وفاته المبكرة. وحتى بعد وفاته استمرت الحكومة فى مطاردته وصادرت رماد جثته بعد حرقها.

وكان برام مثاليا فبعد محاكمة ريفونيا قرر أنه يستطيع خدمة المعركة على الوجه الأفضل بالعمل السرى بالمعيشة كخارج على القانون. فقد كان يؤرقه أن الرجال الذين تولى الدفاع عنهم كانوا يرسلون إلى المعتقلات بينما كان يعيش هو حرا. وأثناء المحاكمة نصحته ألا يسلك ذلك الطريق مؤكدا أنه يخدم المعركة أفضل فى قاعة المحكمة حيث يستطيع الناس رؤية أفريكانى وابن رئيس قضاة يقاتل من أجل حقوق المغبونين ولكنه لم يكن ليستطيع أن يرى الآخرين يعانون بينما يظل هو حرا. وكالقائد الذى يقاتل جنبا إلى جنب مع جنوده لم يرد أن يطلب من الآخرين أن يقدموا تضحية يتورع هو عنها. والتحق برام بالعمل السرى حينما أفرج عنه بكفالة. وقبض عليه عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة للتآمر على ارتكاب الأعمال التخريبية. وحاولت الكتابة إليه ولكن القوانين كانت تمنع ذلك. وعند إصابته بالسرطان قامت الصحافة بحملة للإفراج عنه على أسس إنسانية واستجابت الحكومة وبعد الإفراج عنه وبينما كان يقيم مع أخيه حيث حددت إقامته توفى.

ويطرق عديدة فان برام فيشر حفيد رئيس وزراء مستعمرة نهر أورانج قدم أكبر التضحيات على الإطلاق. فمهما كانت معاناتى فى بحثى عن الحرية فقد كنت أستمد القوة من كونى مناضلا من أجل شعبى. أما برام فكان رجلا حرا ناضل ضد شعبه من أجل أن يضمن الحرية للآخرين.

وبعد شهر من الزيارة تلقيت رسالة من وينى تقول إن طلبها الأخير للزيارة قد رفض بحجة أنى لا أريد رؤيتها وحددت فورا موعدا مع الضابط برينس الذى كان مأمورا للسجن والذى لم يكن مهذبا. فحينما شرحت له الأمر مؤكدا أنه يجب السماح لزوجتى بزيارتى علق قائلا إن زوجتى تبحث عن الدعاية ولما أظهرت استيائى من تعليقه وصف زوجتى بأوصاف بذئية ولم أحتمل ونهضت من مقعدى وتحركت نحوه فأخذ يتقهقر ولكننى تحكمت فى نفسى وبدلا من التهجم عليه بقبضتى هاجمته بالكلمات. وختمت قائلا إنه إنسان وضيع بدون شرف وإنه إن تكرر منه ذلك فلن أمنع نفسى كما فعلت ذلك اليوم. واندفعت خارج المكتب وشعرت أنه قد تسبب فى أن أفقد السيطرة على نفسى وشعرت بالهزيمة.

وفى اليوم التالى اصطحبنى سجانان إلى مكتب المأمور وحينما وصلت أحاط بى حوالى ستة سجانين مسلحين. وكان هناك برينس وضابط الاتهام فى المعتقل وقال لى المدعى إنه يتهمنى بإهانة وتهديد مأمور السجن وناولنى أمر الاستدعاء وسألنى إن كان لدىّ ما أقوله فأجبت بإمكانه التحدث مع محاميى.

وقررت أن أقوم بإعداد قضية مضادة أتهم فيها كل الأفراد بدءا بالمأمور وحتى وزير العدل بسوء التصرف وأقاضي نظام السجون على أساس أنه مؤسسة عنصرية تسعى إلى استمرار سيادة البيض وأجعل من القضية قضية عامة.

وطلبت من جورج بيزرس أن يمثلني وقلت للسلطات إنني سأقوم بإعطائه تعليمات مكتوبة لأنني أعتقد بوجود أجهزة تصنت في غرفة الاستشارة فرفض طلبي لأن السلطات كانت تخشى أن يسرب جورج بياني المكتوب إلى الصحافة وكانت تلك هي بالفعل استراتيجيتنا. وكانوا أيضا يخشون أن أستغل جورج كقناة توصيل إلى أوليفر في لوساكا وقد كنت قد استخدمت جورج لغرض كهذا من قبل. ولكن الوثيقة الحالية لم يكن بها شيء من هذا القبيل. وحدد موعد لعقد محكمة التأديب بالجزيرة وقبل الجلسة بيوم واحد أُبلغت أن محاميي سيصل في اليوم التالي وأنه بإمكاني إعطاؤه البيان مكتوبا وتشاورت مع جورج قبل انعقاد الجلسة، لكن ما إن بدأت الجلسة حتى أعلن المدعي سحب القضية ضدي. وبينما نظرت وجورج باستغراب وكنت أستعد لوضع أوراقي في الحقيبة وصل ضابط اتهام بأمر جديد وأشار إلى بياني المكتوب وأمر أن أعطيه إياه. ولما طلبت من المدعي أن يخبره أن تلك وثائق تحميها حقوق المحامي وأن من حقي ألا أسلمها رد قائلا إن القضية الأولى قد انتهت وأن المحكمة غير منعقدة وأن ضابط الاتهام هو الشخص الوحيد في الغرفة الذي لديه أية سلطة وكان من الواضح أن السلطات سحبت القضية للحصول على الوثيقة

التى لم يكن بها شئ ليسوا على علم به.

ورغم ما كان يبدو من استحالة الهرب فلم أستبعد الفكرة طيلة وجودى فى الجزيرة وكان ماك ماهاراب وإيدى دانيالز وكلاهما شجاع وواسع الحيلة دائمىْ التفكير ومناقشة الخطط والاحتمالات.

وكان أحد الرفاق قد تمكن من صنع مفتاح يفتح معظم غرف قسمنا حيث استعملناه لدخول بعض المخازن ولكننا لم نستعمله للخروج من القسم. فقد كان البحر هو الخندق المائى الذى لا يمكن اجتيازه.

وفى عام ١٩٧٤ عبر ماك البحر إلى كيب تاون لزيارة طبيب الأسنان وكان متعاطفا حيث إن أحد أقربائه كان مسجونا سياسيا ولذلك فقد رفض أن يعالج ماك حتى يفك قيده. وقد لاحظ ماك أن غرفة الانتظار بها نافذة قريبة من الأرض تطل على شارع جانبى وخططت أنا وماك وويلتن مكوايى وسجين رابع أن نذهب إلى طبيب الأسنان وكنا على استعداد للقيام بالمحاولة ولكن حينما اتصل ماك بالشخص الرابع رفض. وكنا نشك فى ولائه. ولما ذهبنا إلى طبيب الأسنان أخليت العيادة من المرضى الآخرين. وطلبنا فك قيودنا وقام الحراس بذلك. ولكن حينما نظرنا من النافذة لاحظنا أن الشارع وهو شارع شديد الازدحام فى العادة قد أخلى من المارة وشككنا فى أمر كمين ولم ننفذ الخطة.

-٧٨-

كان عيد ميلادى الخمسين قد مر يوم ١٨ يونيو ١٩٦٨ دون أن ألحظه

وفي عام ١٩٧٥ حينما بلغت السابعة والخمسين تقدم وولتر وكاثرادا بخطة طويلة الأجل لاحتفال يجعل عيد ميلادى الستين مناسبة تذكر.

وكانت إحدى القضايا التى تشغلنى هى إبقاء فكرة المعركة حية بين الشعب وكانت الحكومة قد أخمدت معظم الصحف الراديكالية خلال العقد الماضى وكان هناك حظر على نشر أى كلمات أو صور للسجناء.

وذات يوم كنت أتحدث مع كاثرادا و وولتر في الفناء حينما اقترح كاثرادا أن أكتب مذكراتي ورأى أن أنسب ميعاد لنشر مثل ذلك الكتاب هو بلوغي الستين وقال وولتر إن مثل تلك القضية إذا رويت بصدق وعدل فستعمل على تذكير الناس بما قاتلنا ومازلنا نقاتل من أجله وأنها ستكون بمثابة إلهام للمقاتلين الشباب وراقت لى الفكرة ووافقت أن أبدأ وقررت أن أكتب معظم الليل وأنام معظم النهار.

وكنت كل يوم أعطى ما أكتب لكاثرادا الذى كان يراجعه ثم يقرؤه على وولتر ويكتب ملاحظاته فى الهوامش ولم يتردد الاثنان فى نقدى وكنت أهتم بنقدهما وأقوم بعمل التغييرات وبعد ذلك كان لالو تشيبا يأخذ المسودة ويحول ما كتبته إلى نسخة ميكروسكوبية مختزلة بنقل صفحات عشر من الفولسكاب إلى وريقة صغيرة ويقوم ماك بتهريبها إلى الخارج.

وبدأ الشك يساور السجانين فسألوا ماك عما أفعله طوال الليل فهز كتفيه قائلا إن ليس لديه أدنى فكرة وأخذت أكتب بسرعة عظيمة حيث انتهيت فى أربعة أشهر وغطيت الفترة من مولدى وحتى محاكمة

ريفونيا وختمت ببعض التعليقات على جزيرة روبن.

وخبأ ماك النسخة المصغرة في أغلفة دفاتره التى يستعملها فى الدراسة وقام بتهريبها خارج السجن حين الإفراج عنه عام ١٩٧٦. وكانت الترتيبات قد تمت على أساس أن يخبرنا ماك حينما يتم تهريب النسخة خارج البلاد وحينئذ نقوم بإعداد الأصل. وفى نفس الوقت كان علينا أن نتخلص من الخمسمائة صفحة الأصلية بدفنها في الحديقة فى غفلة من الحراس فى ثلاث بقع مختلفة بدل حفر حفرة واحدة كبيرة وقسمنا المخطوط إلى ثلاثة أجزاء غلفناها بالبلاستيك ووضعنا كلا منها في علبة كاكاو وطلبنا من جيف ماسيمولا أن يصنع أدوات الحفر. وذات صباح خرجت أنا وكاثرادا ى وولتر وإيدى دانيالز وكأننا للتمشية والحديث السياسى فى الحديقة وتمكنا من حفر الحفر ودفنت أنا الجزء الأكبر من المخطوط فى حفرة عميقة فيها إنبوبة معدنية وثبتت المخطوط تحت الأنبوبة وانتهينا من العملية فى الوقت المحدد لذهابنا إلى المحجر وشعرت بالراحة لوجود المخطط فى مكان أمين.

وبعد أسابيع قليلة وبعد ميعاد استيقاظنا بقليل سمعت صوت دقات فئوس ومجارف. وبعد خروجنا من الزنزانات لنغتسل تمكنت من استرقاق النظر إلى الخارج وهناك، فى النهاية الجنوبية للفناء، كان فريق عمل من سجناء القسم العام يقوم بحفر فى المنطقة التى دفنا فيها المخطوط. فقد قررت السلطات بناء جدار أمام قسم الحبس الانفرادى لأنهم اكتشفوا أن السجناء هناك كان بوسعهم الاتصال بنا فى الفناء. وكان فريق العمل يحفر حفرة لوضع الأساس.

وأخبرت كاثرادا و وولتر بالأمر ونحن نغتسل واعتقد كاثرادا أن الجزء الرئيسى من المخطوط الذى كان قد تم دفنه تحت أحد الأنابيب لاخوف عليه أما الجزءان الآخران فكانا معرضين للاكتشاف. وحينما أحضر الإفطار إلى الفناء أمر السجانون المشرفون على فريق البناء رجالهم بمغادرة الفناء لكى لا يحدث اتصال بينهم وبيننا. وتشاورت مع وولتر وكاثرادا، ثم مشينا حتى وصلنا إلى نهاية الفناء الجنوبى ووجدنا أن بداية الحفر كانت قريبة جدا من مواقع العلبتين الصغريين ولحق بنا إيدى دانيالز وبدأنا فى الحفر وأنقذنا المخطوطين ولما كنا متأكدين أنهم لن ينزعوا الأنبوبة من أجل بناء حائط تركنا المخطوط الثالث مكانه.

وعندما عدت من المحجر ذلك اليوم وبدلا من الذهاب للاغتسال تمشيت إلى نهاية الفناء محاولا التظاهر باللامبالاة ولكن أزعجنى ما رأيت فلقد لاحظت أن فريق العمل قد انتزع الماسورة ولابد أن رد فعلى جذب الانتباه وكان هناك عدد من السجانين يرقبوننى وتأكدوا أننى كنت على علم بمكان المخطوط. وعدت إلى الممر لأغتسل وأخبرت وولتر وكاثرادا وكان إيدى قد تخلص من المخطوطين الآخرين.

وفى الصباح الباكر لليوم التالى استدعيت إلى المكتب لمقابلة المأمور الذى كان يقف إلى جانبه أحد مسئولى السجون الكبار وكان قد و صل توه من بريتوريا. وأخبرنى المأمور أنهم قد وجدوا المخطوط الخاص بى. وبقيت صامتا وحينما سألنى إن كان ذلك خطى لم أجب. ولما أكد أنهم يعلمون أنه لى سألته أن يأتى بالدليل.

وكـان ردهم أن مـا بحـوزتهم هو الدليل وأضـافـوا أن الملاحظات الهامشية هي بخط كاثرادا ووولتر. ورغم أنهم لم يوقعوا علينا عقوبات ذلك اليوم فقد أُعلمنا بعد أيام قليلة أنه قد تم حرماننا من ميزات الدراسة واستمر ذلك الحرمان أربع سنوات.

وبعد أن تم الإفراج عن ماك فى ديسمبر أرسل الدفاتر إلى إنجلترا ثم قضى سنة محددة إقامته في منزله فى جنوب إفريقيا وعقب ذلك تسلل من البلاد وذهب إلى لوساكا لمقابلة أوليڤر ثم إلى لندن حيث مكث ستة أشهر وهناك وبمساعدة كاتب آلة أعاد كتابة المخطوط وعاد إلى لوساكا وأعطى نسخة لأوليڤر. ولا أعرف ماذا فعل بها أوليڤر بعد ذلك ورغم أنها لم تنشر وأنا فى السجن فإن محتوياتها هى العمود الفقرى لهذه المذكرات.

-٧٩-

وفى ١٩٧٦ تلقيت زيارة غير عادية من جيمى كروجر وزير السجون وعضو بارز فى الوزارة ولم يكن كروجر فقط ذا تأثير بشأن سياسة السجون بل أيضا كان ينتقد سياسة الحكومة إزاء معركة التحرير.

وقد حدست سبب مجيئه فقد كانت الحكومة تقوم بمجهودات ضخمة لإنجاح سياستها للتنمية المنفصلة وللمناطق شبه المستقلة وكانت ترانسكى بقيادة ابن أخى وولى نعمتى فى وقت سابق ماتانزيما النموذج الذى تعرضه الحكومة في هذا الصدد. وتذكرت ما كان المأمور قد قاله لى مؤخرا وكأنما يتفاكه من أن علىّ أن أتقاعد فى

ترانسكي وأخذ فترة راحة طويلة. وكان ذلك بالفعل ما اقترحه كروجر. وقد رأيت في المقابلة فرصة لعرض شكاوانا وكان رده أننا جميعا شيوعيون نستعمل العنف. وكان من الواضح أنه لا يعرف شيئا عن المؤتمر. وحينما قلت له إننا أقدم من الحزب القومي، صعقته الدهشة، وكان أيضا لا يعرف شيئا عن ميثاق الحرية.

وكان من الواضح أن كروجر جاء مسلحا بعرض محدد وهو أنه في حالة اعترافي بحكومة الحكم الذاتي في ترانسكي فإن العقوبة ستخفف عني بدرجة كبيرة. وأخبرته أنني أرفض سياسة البانتوستانات رفضا تاما وأنني لن أفعل شيئا لدعمها، وذكرت أيضا أنني من جوهانسبرج وأنني لو عدت فستكون عودتي لجوهانسبرج. ولم تفلح محاولاته لإقناعي وعاد مرة أخرى بعد شهر لنفس الغرض وقوبل بالرفض فقد كان عرضا لا يقبله سوى مُرتد.

-٨٠-

وفي يونيو ١٩٧٦ بدأنا نسمع تقارير غير واضحة عن انتفاضة كبيرة في البلاد. وسمعنا أن شباب سويتو تغلبوا على العسكر وأن الجنود ألقوا بأسلحتهم وهربوا. ولم نعلم بواقع ما حدث إلا مع وصول المسجونين الشباب ممن اشتركوا في انتفاضة ١٦ يونيو ١٩٧٦.

ففي ١٦ يونيو تجمع خمسة عشر ألفا من تلاميذ المدارس في سويتو للاحتجاج على قرار الحكومة القاضي بأن تدرس نصف المقررات في المدارس الثانوية الإفريقية باللغة الأفريكانية ولم يكن الطلبة يريدون أن

يتعلموا تلك اللغة ولم يكن المدرسون يريدون أن يدرسوا لغة الغاصب. ولم تجد الالتماسات التى أرسلها المدرسون والآباء، وجابهت كتيبة شرطة ذلك الجيش من الطلبة وفتحوا نيرانهم عليهم بدون مقدمات مما نتج عنه مقتل هيكتور بيترسون البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما وآخرين كثيرين. ورد الأطفال بالحجارة والعصى وترتب على ذلك حالة من الفوضى الجماهيرية مما أدى إلى جرح مئات من الأطفال بينما قتل رجلان أبيضان بالحجارة.

وترددت أصداء الأحداث فى أرجاء المدن والمناطق الإفريقية ونتجت أعمال شغب وعنف فى جميع أنحاء البلاد ونظمت جنازات جماهيرية لضحايا عنف الدولة تحولت إلى مظاهرات. وفجأة اشتعلت أرواح شباب جنوب إفريقيا بالاحتجاج والثورة. فقاطع الطلبة المدارس فى جميع أنحاء البلاد وشارك منظمو المؤتمر الطلبة بدعم الاحتجاج وهكذا انقلب النظام التعليمى على الذين ابتدعوه لأن ذلك الشباب الغاضب الجرئ كان ثمرته.

وفى سبتمر امتلأ قسم الحبس الانفرادى بشباب تم القبض عليهم عقب الأحداث وعلمنا منهم بما حدث وارتفعت معنوياتنا فقد انفجرت روح الاحتجاج الجماهيرى التى بدأت خامدة فى الستينيات. كان كثير من هؤلاء الشباب قد ترك البلاد ليلحقوا بحركتنا العسكرية ثم تسللوا راجعين وكان قد تم تدريب الآلاف منهم فى تنزانيا وأنجولا وموزمبيق.

وكسجناء، كان هؤلاء الشباب مختلفين عن أى شئ رأيناه. فقد كانوا

شجعانا عدائيين وعدوانيين ولم يكونوا ليطيعوا أى أوامر وكان يميلون إلى المواجهة ولم تدر السلطات ماذا تفعله معهم فقد قلبوا الحياة فى الجزيرة رأسا على عقب.

وقد رأينا فيهم روح العصر الثورية الغاضبة وكنت قد عرفت من وينى ميولهم النضالية الإفريقية. وقد روع المساجين الجدد ما أسموه الظروف البربرية فى الجزيرة وبدوا متشككين فينا وتجاهلوا دعوتنا للنظام. وكان من الواضح أنهم يروننا معتدلين. وبعد سنوات طويلة من وصمى بالثورية والراديكالية لم يكن رأيهم فىّ كمعتدل مدعاة للسرور- وفضلت أن أسمع ما يقولون.

وحينما حضر بعض هؤلاء الشباب مثل ستريني مودلي من منظمة الطلبة الأفارقة، وساثس كوبر من مؤتمر الشعب الأسود إلى قسمنا دعوتهم إلى إلقاء محاضرات عن تنظيماتهم فقد كنت أود أن أعرف ما أتى بهم إلى المعركة ودوافعهم وأفكارهم عن المستقبل.

وقد رفض هؤلاء الشباب الانصياع لتعليمات السجن كخلع القبعات فى حضور الضباط أو الوقوف إذا دخل الضابط الغرفة.

وكانت هذه أول مرة نتعرف على حركة «الوعى الأسود» فبعد حظر المؤتمر وال PAC والحزب الشيوعي ساعدت حركة «الوعى» على ملء الفراغ بين الشباب وكان «الوعى الأسود» فلسفة أكثر منها حركة ونتجت عن فكرة وجوب تحرير السود أنفسهم من عقدة النقص التى كانت نتاج قرون من حكم البيض لكى يمكن للشعب أن يهب بثقة

ويحرر نفسه من الطغيان. وبينما كانت حركة الوعى تؤيد مجتمعاً لا عنصريا فإنهم لم يسمحوا للبيض أن يلعبوا دورا لتحقيق ذلك الهدف. وكانت تلك هى الآراء التى كنت أعتنقها حينما كونت منظمة الشباب من ربع قرن مضى. إذاً، فحركة الوعى تمثل نفس الاستجابة لنفس المشكلة التى لم تختف. وبينما شجعتنى روحهم النضالية فقد اعتقدت أن فلسفتهم بتركيزها على اللون الأسود كانت فلسفة إقصائية وتمثل وجهة نظر انتقالية لم تتضح بعد. ورأيت أن دورى كسياسى أكبر سنا هو أن أساعدهم إلى أن ينتقلوا لما هو أكثر شمولا وكنت أعلم أيضا أن هؤلاء الشباب سيحبطون لأن حركتهم لا تقدم برنامج عمل.

كنت أقوم بالاتصال ببعض هؤلاء الشباب عن طريق رسائل مهربة وتحادثت مع بعض ممن كانوا من إقليم ترانسكى وسألتهم عن موطنى. وكان بعضهم ذا شهرة نضالية وقد كنت سمعت تقارير عن باتريك ليكوتا المشهور بـ«الرعب» وكان قائد جمعية طلبة جنوب إفريقيا وأرسلت له رسالة أرحب به فى الجزيرة وكان قد اكتسب شهرته كلاعب كرة، وأيضا لمهارته فى المجادلة. وكان قد اختلف مع بعض زملائه بخصوص الإقصائية العرقية. وبذلك كان قد اقترب من أفكار المؤتمر. وحينما أتى إلى الجزيرة قرر أن يلتحق بالمؤتمر ولكننا لم نشجعه خوفا من خلق توترات فى القسم العام ولكنه غير ولاءه والتحق بالمؤتمر. وذات يوم تعرض لهجوم بمذراة فى الحديقة بواسطة أعضاء من الوعى الأسود وتم علاجه ووجه الاتهام إلى المتهجمين. ولكى لا نشتت الشمل أشرنا عليه ألا يقدم شكوى ووافق ورفض تأدية الشهادة

ضدهم وأسقطت الدعوة. وقد كنت أريد أن يرى هؤلاء الشباب المؤتمر مظلة كبرى تظل أناسا من نزعات مختلفة وآراء متباينة. وبعد تلك الحادثة قرر العشرات من هؤلاء الالتحاق بعضوية المؤتمر بمن فيهم بعض الذين هاجموه وقد ارتقى «رعب» إلى الصفوف الأمامية للمؤتمر في القسم العام وأصبح يقوم بتدريس سياسة المؤتمر للسجناء الآخرين. وأكدت شجاعة ورؤية رجال مثل ليكوتا أنه مازالت لآرائنا فاعليتها وأنها مازالت تمثل الأمل الأفضل لتوحيد معركة التحرير ككل.

-٨١-

ولقلق السلطات من كيفية التعامل مع تلك الأسود الصغيرة فقد تركت لنا الحبل على الغارب. وكنا حينذاك في السنة الثانية من إضراب التباطؤ في العمل، فقد كان مطلبنا هو حقنا في أن يُسمح لنا بعمل شئ مفيد كالدراسة أو تعلم مهنة وأن يلغى العمل اليدوى فأوقفنا الذهاب إلى المحجر وقضينا الوقت نتحدث. وفي آخر عام ١٩٧٧ ألغت السلطات العمل اليدوى وأصبح بإمكاننا قضاء اليوم بقسمنا.

وكانت نهاية العمل اليدوى نوعا من التحرر فتفرغت لكتابة الخطابات والنقاش والقراءة وإعداد مذكرات قانونية كما أنني ركزت على هوايتين لي وهما لعب التنس والعمل بالحديقة. وقد نجحت في زراعة حديقة بالفناء أصبحت تمد الحراس بالبصل والطماطم كما أرسلت في طلب كتب عن فن زراعة الحدائق. وكنت أرى في الحديقة إلى حد

ما مجازا لبعض أوجه حياتى. فعلى القائد رعاية حديقته وغرس الحبوب وزراعتها وجنى المحصول. وكالبستانى فيجب على القائد تحمل مسئولية ما يزرعه والعناية بعمله والتخلص من الأعداء والحفاظ على ما يجب الحفاظ عليه وترك ما لا يمكن إنجاحه.

وكتبت خطاباً لوينى عن نبتة طماطم احتضنتها منذ أن كانت صغيرة إلى أن أصبحت زرعة قوية وأنتجت ثمارا عميقة الاحمرار. ولكن نظرا لخطأ ما أو للتهاون فى الرعاية بدأت تذبل لم تفلح محاولاتى فى أن أعيدها قوية. وحينما ماتت اقتلعت الجذور من التربة وغسلتها ودفنتها فى ركن الحديقة. رويت تلك القصة بالتفصيل ولا أعرف ماذا استنتجت وينى من ذلك الخطاب ولكنى حينما كتبته كانت لدى مشاعر متباينة فلم أكن أريد لعلاقتنا أن تنتهى مثل تلك الزرعة ولكنى كنت أشعر أنه لم يكن بمقدورى تدعيم معظم علاقاتى المهمة. وأحيانا يقف الإنسان عاجزا حيال شئ لابد وأن يموت.

وكانت نتيجة إيقاف العمل اليدوى زيادة وزنى. وإنى أجد التمرينات الرياضية ليست أساسية فقط لصحة الجسد بل للسلام النفسى. وكنت أقوم بالتدريبات بانتظام فى الجزيرة. وكانت هيئة الصليب الأحمر. وبناء على شكاوانا قد أمدتنا بمعدات الرياضة المختلفة ككرة القولى وتنس الطاولة. وبعد إلغاء مميزات الدراسة بدأت فى قراءة الروايات وكانت مكتبة الجزيرة تحوى عددا هائلا منها. أما الكتب السياسية فكانت من المحظورات كذلك كانت كل الكتب عن الاشتراكية والشيوعية لدرجة أن عنوان أى كتاب، حتى ولو كان رواية، إذا احتوى لفظ أحمر

أو حمراء أصبح من الممنوعات. وكنت منذ البداية أحاول قراءة كتب عن جنوب إفريقيا لكتّاب من جنوب إفريقيا فقرأت روايات نادين جورديمر غير المحظورة وتعلمت منها الكثير عن المشاعر الليبرالية البيضاء.

-٨٢-

وفي أعقاب انتفاضة طلبة سويتو علمت أن ويني وصديقي القديم الطبيب نثاثو موتلاند التحقا بجمعية الآباء السود. وفي أغسطس وبعد شهرين من ثورة الطلبة احتُجزت ويني وسجنت بقلعة جوهانسبرج بدون توجيه تهمة ولمدة خمسة أشهر وبعد الإفراج عنها كانت أكثر تصميما والتزاما بالمعركة. وكانت السلطات مستاءة من شعبية ويني وسط الراديكاليين الشباب وكانوا مصممين على الإقلال من تأثيرها وقد نفذوا ذلك بتبجح ووقاحة ففرضوا عليها النفي الداخلي حيث حضرت شاحنة وعربات شرطة في ليلة ١٦ مايو ١٩٧٧ وحملوا الأثاث والملابس في الشاحنة. وصدر القرار بنفي ويني إلى منطقة ليس فيها أي صداقات أو معارف ولا تعرف لغتها.

ومن خطاباتها علمت أن الحياة هناك شديدة الصعوبة فلم تكن هناك تدفئة أو مراحيض أو مياه جارية ولم تكن هناك متاجر صغيرة وكانت المتاجر الكبيرة تكن العداء للأفارقة وكان البيض هناك شديدي المحافظة وأصبحت ويني وزيندزي هناك تحت الرقابة الشديد والتهديد من الشرطة.

وفي سبتمبر وبمساعدة محامي ويني تقدمت بطلب ضد الشرطة هناك طالبا منعهم من مضايقة ويني وزيندزى وحكم القاضي لويني وزيندزى باستقبال زائرين هناك وبما أوتيت ويني من مرونة تمكنت خلال فترة قصيرة نسبيا من اكتساب الناس هناك بما في ذلك بعض البيض المتعاطفين وقامت بنشاطات اجتماعية لصالح الأفارقة هناك.

وفي ١٩٧٨ تزوجت ابنتي الثانية من ويني بأمير ثامبموزى نجل ملك سوبوزا من سوازيلاند وكانا قد التقيا أثناء الدراسة. ولم أستطع القيام بواجبات الأب في تلك المناسبة ووكلت مستشاري القانوني جورج بيزوس في أن ينوب عني. وعلمت من جورج أن والد العريس قائد محلي مستنير وعضو في المؤتمر وكان لزواج زيني من الأسرة المالكة لسوازى ميزة هائلة فقد منحت جواز سفر دبلوماسيا وكان بإمكانها زيارتي عندما تريد. وحضرت في الشتاء هي وزوجها ووليدتها. ولمنزلة الأمير فقد سمح بلقائنا في غرفة الاستشارات وكان لقاء رائعا. وكان للزيارة هدف رسمي فقد كان على أن أختار اسما لحفيدتي وأسميتها زازيوى الذي يعني أمل.

-٨٣-

وفي أثناء العامين التاليين أصابتني حالة حنين حالمة وكانت إبانها ذاكرتي تنقلني إلى لحظات فرح وحزن غامرين. وأصبحت أحلامي غنية وكنت أقضي ليالي بطولها أعيش الأوقات السعيدة والحزينة للماضي. وأضحى هناك كابوس يعاودني فقد كنت أراني وقد أطلق سراحي

ولكن من جوهانسبرج ومررت خلال أسوار المدينة ولكن لم أجد أحدا يستقبلنى هناك فقد كان المكان خاويا وكنت أسير تجاه سويتو قاصدا منزلنا وبعد عدة ساعات كنت أجد المنزل ولكن أيضا خاويا كمنزل الأشباح.

-٨٤-

وفى عام ١٩٧٨ وبعد حوالى خمسة عشر عاماً من المطالبة بحق تلقى الأنباء وصلت السلطات إلى تسوية فبدلا من أن تسمح بالصحف أو بالاستماع إلى الإذاعة قررت أن تبدأ إذاعة داخلية تذيع منها ملخصا للأنباء وكانت الفقرات التى تذاع تتكون من أنباء طيبة عن الحكومة وسيئة عن أعدائها وافتتحت أول نشرة إخبارية بنبأ وفاة سوبرت سوبوكوى وكانت هناك أنباء أخرى عن انتصارات قوات إيان سميث.

وفى تلك السنة علمنا أن پى. دبليو. بوثا خلف فورستر فى رئاسة الوزراء. وكان كل ما أعرفه هو أن بوتا كان وزير دفاع شرسا. وقد أمر بالهجوم على أنجولا عام ١٩٧٥. ثم علمنا مالم تذعه المحطة وهو نجاح حركة التحرير فى أنجولا وموزمبيق وتولى حكومات ثورية هناك.

وأدخلت السلطات أيضا إلى الجزيرة الأفلام السينمائية حيث كان يعرض فيلم كل أسبوع. وكان ضمن الأفلام التى عرضت فيلم كليوباترا وأثار الفيلم مناقشات كثيرة حيث اعترض الكثير على أن تقوم ممثلة أمريكية بدور كليوباترا.

ورأوا فى ذلك الفيلم مثلا للدعاية الغربية التى تسعى لمحو حقيقة أن

كليوباترا كانت إفريقية وذكرت لهم أنا عن التمثال الرائع الذى رأيته في مصر لكليوباترا والذى صورها ذات بشرة أبنوسية. وتأثرت تأثرا عميقا بفيلم وثائقي صور إغراق السفينة الملكية البريطانية على أيدى اليابانيين وكان أكثر ما أثر فى هو رؤية تشرشل يبكى عقب فقدان السفينة. وقد بقيت الصورة فى ذاكرتى مدة طويلة وحدث بعد مشاهدتنا فيلما عن مجموعة ملائكة جهنم الأمريكية -التى كانت ضد السلطة- بدأنا علي الفور فى نقاش معناه، وانتقد معظم الرجال أساليب جماعة ملائكة جهنم الخارجة على القانون ولكن أحد أعضاء جمعية الوعى الأسود ويدعى ستريني هاجمنا وقال إننا مجموعة من مثقفى الطبقة الوسطى وعلى ذلك توحدنا من السلطات اليمينية. وما أثار قلقى هو مدى صحة اتهام سترينى فلقد كان قد مر وقت طويل على دخولنا السجن وكان الخطر هو أن تكون أفكارنا قد تجمدت مع الوقت فالسجن نقطة ثابتة فى عالم متحرك ومن السهل أن يبقى الانسان فى مكانه بينما العالم يتغير.

وفى عام ١٩٧٩ أعلنت السلطات تعديل نظام التغذية وتوحيده بين جميع السجناء من جميع الأعراق وعمدت السلطات فى السجن إلى الإقلال من نصيب الرجل الملون من السكر بدلا من زيادة نصيب الإفريقى.

-٨٥-

وفى الثمانينات منحنا حق شراء الصحف وكان ذلك الحق مقصورا

على مصنفى «أ» وكانت كل مجموعة منهم لها الحق في شراء صحيفة واحدة إنجليزية وأخرى أفريكانية. ولكن إذا تبادلوها مع المجموعات الأخرى يسقط هذا الحق عنهم. ورغم أن الصحف التى كنا نشتريها كانت محافظة فقد كانت تخضع لرقابة السجن التى تتولى قص الفقرات التى تراها ضارة.

وأمكننى فى مارس ١٩٨٠ قراءة فقرة صحفية فى جريدة جوهانسبرج صانداى وكان العنوان «أطلقوا سراح مانديللا» أما فى داخل الصحيفة فقد كان هناك التماس يمكن للناس التوقيع عليه للمطالبة بإطلاق سراحى وزملائى.

وكانت الفكرة قد بدأها أوليفر والمؤتمر في لوساكا وكانت الحملة حجر زاوية فى استراتيجية تضع قضيتنا فى بؤرة تفكير الناس وقام المؤتمر بتركيز الحملة على شخص واحد يريد أن يعطيها أبعادا شخصية. ومما لا شك فيه أن الملايين الذين أيدوا الحملة لم تكن لهم أدنى فكرة عمن يكون نيلسون مانديللا. وقد علمت أنه حينما ظهرت ملصقات Free Mendela فى لندن اعتقد معظم الشباب هناك أن اسمي الأول هو Free.

وكنت قبل ذلك بعام قد منحت جائزة جواهر لال نهرو لحقوق الإنسان في الهند وكان ذلك دليلا على انبعاث المقاومة من جديد وبالطبع منعت أنا وويني من حضور الاحتفال وحضر أوليفر نيابة عني. وتجدد أيضا نشاط الـMK حيث كانت تقوم بإحداث تفجيرات أسبوعيا فى مواقع

استراتيجية. واستحدث وزير الدفاع مالان -يؤيده بوتا- نظام «عسكرة» البلد لمواجهة معركة التحرير.

-٨٦-

وفي أحد أيام ١٩٨٠ علمت أن ملك ترانسكي ساباتا داليند يبيو الذي كان من المقرر أن أكون مستشارا له قد خلعه ابن أخي ماتانزيما رئيس وزراء ترانسكي. قد سبب ذلك استيائي الشديد. وطلب عدد من رؤساء قبائل الثمبو المحليين زيارتي وتمت الموافقة عليها من قبل السلطات لاعتقادهم أن انشغالي بالشئون القبلية قد يقلل من تورطي في المعركة. وقد كانت الحكومة تدعم سلطة رجال القبائل للتقليل من أثر المؤتمر. وبينما رأى الكثير من زملائي أن أرفض رؤية هؤلاء الرؤساء رأيت من الواجب أن أحاول الوصول إليهم فلم أكن أرى تعارضا بين كون الإنسان قائدا قبليا وعضوا في المؤتمر بل كنت أعتقد أن إسهامنا في التنظيمات المحلية سيكون مصدر قوة لنا.

والتقيت بالرؤساء الذين كانوا يؤيدون ساباتا ويخافون ماتانزيما وأشرت عليهم بالوقوف إلى جانب ساباتا وأن يبلغوه تأييدي ومعارضتي لماتانزيما.

كما طلب ماتانزيما مقابلتي بحجة مناقشة أمور عائلية ورغم رغبتي في رؤيته لاعتقادي بإمكانية التأثير عليه فقد اعترض كثير من رفاقي في القسم لأنهم رأوا أن ماتانزيما سيستغلها للدعاية السياسية ولإيهام الناس أننا راضون عن سياسته وانحنيت أمام آرائهم.

وفى مارس ١٩٨٢ علمت بإصابة وينى فى حادث سيارة وبعد ذلك جاءنى محاميها ليطمئننى عليها وكانت الزيارة قصيرة. وعند عودتى إلى زنزانتى زارنى هناك مأمور القسم وكان ذلك أمرا غير معتاد. وأخبرنى المأمور أن علىّ أن أجمع حاجياتى لأن الأوامر قد صدرت بنقلى ولم يفصح لى عن الجهة التى سأنقل إليها. وعلمت أن وولتر وريموند مهلابا وأندرو مالا نجينى قد صدرت إليهم نفس الأوامر.

وتساءلت: لقد مر على ثمانية عشر عاما فى الجزيرة. فلماذا هذا القرار المفاجئ؟ وحدثت حالة اهتياج في الممر عندما علم الآخرون أننا سنرحل ولكن لم نمنح الوقت لوداع رفاق السنوات الطويلة.

ونظرت من العبارة تجاه الجزيرة فقد اعتدت عليها. لقد عشت هناك قرابة عقدين من الزمان ورغم أنها لم تكن أبدا لى موطنا فلقد كانت مكانا شعرت فيه بالراحة فإنى لا أشعر بالراحة مع التغيير ولم تكن الجزيرة استثناء لذلك.

وفى كيب تاون دفع بنا إلى شاحنة بدون نوافذ مضت بنا لمدة بدت أكثر كثيراً من ساعة. ثم وقفت وأمرنا بالسير فى الظلام وتسلقنا درجات إسمنتية ودخلنا من أبواب معدنية إلى منطقة أخرى. وحينما سألت الحارس عن المكان الجديد أجاب أنه سجن بولسمور ■